الأفعى

د/علوي عبد الله طاهر

الأفعى،أو كما يسميها العامة(الحية)حيوان زاحف،لين الملمس،ناعم الجلد،رقيق البشرة،لا شوك فيه ولا أطراف،وبعض أنواعها له تقسيمات بديعة،وزركشات جميلة،ونقوش رائعة،ولكنها مع وجود هذه الصفات فيها فإن معظم الناس يخشونها ويخافون منها ويخشاها الصغار والكبار،لأنها حيوان خبيث،ومخلوق خطير،فهي تخفي وراء ملمسها اللين،وجلدها الناعم،وزركشتها الرائعة أسناناً تقرض وأنياباً تؤذي وتضر.

وكذلك الإدارة الأمريكية المعاصرة،فما هي إلا أفعى بشرية،فهي تزحف ببيضها ومنتجاتها الصناعية على الأسواق العالمية،وتحاول أن تسيطر،وتعمد على التأثير في أذواق الناس ليتخلوا عن منتجاتهم الوطنية،وشراء منتوجاتها،أو يتخلوا عن ثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم،لينهلوا من معين ثقافتها بما تقوم به من تكثيف إعلامي،ونشاط ثقافي للتأثير في الناس،وجعلهم يقبلون الثقافة الأمريكية،ويتعايشون معها من دون خوف ولا وجل،فهي لذلك توجه وسائل إعلامها،وتسخرها للترويج للثقافة الأمريكية في محاولة منها لاقناع الناس بأن الحضارة الأمريكية حضارة إنسانية رائعة،تسعى لإسعاد الإنسان والرقي به،وتحريره من العبودية،والأخذ بيده نحو الديمقراطية،ولذلك لا خوف منها،ولا داعي للخشية من زحفها على الأرض،ولا ضرورة في التصدي لها أو مقاومتها ما دامت مصلحة الناس تقتضي وجودها،بل أن بقاء قوتها في أرضهم تشريف،فهي بذلك تشبه الأفعى التي زحفت على عش عصفور آمن،وأكلت فراخه الصغار،واحتلت العش،فلما أتى العصفور ليستعيد عشه،ويطرد الأفعى منه رفضت الأفعى وأصرت على البقاء فيه،بل عمدت إلى تهديد العصفور ليكف عن مطالبتها بالخروج من العش،ولما رأته مصراً على طردها،هجمت عليه وابتلعته ولسان حالها يقول:-

أفعى يسرك أن تكون مطيتي
فتحل في لحمي وفي أحشائي؟

ولقد أستخدمت أمريكا المعاصرة الأسلوب نفسه في التعامل مع شعبي العراق وأفغانستان اللذين يطالبانها بالخروج وسحب قواتها من بلديهما.

ومعروف أن الأفعى لها رأس صغير لا تكاد تميزه عن سائر جسمها،ولكنها تكتنز في هذا الرأس الداء كله،فلا تحتقر أمر هذا الرأس الصغير،ففيه العينان اللتان،بها تكشف عن فريستها،وفيه الفم الذي يضم الأسنان والأنياب،وهنا منبع السم الزعاف،وكذلك الإدارة الأمريكية المعاصرة،فهي تمتلك مراكز البحوث والدراسات ولديها مئات الخبراء الاستراتيجيين الذين يضعون الأهداف ويرسمون الخطط،لاحتلال البلدان ولديها كذلك الجيوش البرية والبحرية والجوية التي توجهها لغزو العالم ونهب خيرات الشعوب ولديها أيضاً أجهزة أستخبارات عالية المستوى،فهي لذلك تحقد،على الدول الناجحة، ويسوؤها أن تتقدم الشعوب حتى لا تخرج عن هيمنتها فتضيق ذرعاً من الأنظمة التي تنحو منحى مستقلا وتعمل مافي وسعها لجعلها خاضعة لها وسائرة في فلكها، وإلا فإنها ستعمل على خلق العراقيل والصعوبات للحيلولة دون تقدمها وتطورها.

ومن خصائص الأفعى أنها تزحف على الأرض بطيئة تبحث عن فريسة تفترسها وقد تصادف جرذاً حذراً يفر منها حتى لا تبتلعه،فتبحث عن فريسة أخرى هنا وهناك،أو تلتقي أرنبة مذعورة،فتأتي إليها،وتلف جسمها الطويل حولها في هدوء ورقة حتى تحيط بها تماماً،والأرنب المسكينة تحسب أنها صديقتها أو رفيقة لها متصورة أنها بذلك الالتفاف تعبر عن حبها وشغفها بها أو شوقها لها،ولكن الأفعى الخبيثة الماكرة تضغط عليها بعضلاتها قليلاً قليلاً،ثم تضاعف الضغط بلا رحمة أو هوادة حتى تصبح الأرنب جثة هامدة،فتلتهمها بشراسة وكذلك تفعل الإدارة الأمريكية المعاصرة فهي تزحف إلى البلدان النامية رويداً رويداً من خلال الزعم بتقديم المساعدات والمعونات التي هي بحاجة ملحة إليها للخروج من أزمتها أو لحل بعض مشكلاتها فتقدم لها آلاف الأطنان من القمح بالمجان على شكل معونات غذائية أو مساعدات إنسانية،فتقبلها تلك البلدان بنوع من الامتنان والتقدير متصورة أن ذلك لمصلحتها خاصة أن تلك المعونات تساعد في حل بعض أزمة الأنظمة الحاكمة في الدول النامية،كونها معونات مجانية،غير مدركين أن تلك المعونات تعمل بصورة مباشرة أو غير مباشرة على الإضرار بالاقتصاد الوطني وتدمير المنتوج المحلي،وتخريب الزراعة الوطنية،وذلك لأن الناس يتعودون عليها في غذائهم،ويقبلون عليها،متخلين بذلك عن المنتوج المحلي، فيهملون الزراعة،وبعدها يسهل على أمريكا والشركات المنتجة للغذاء الضغط على الدول النامية،والتحكم في اقتصادها وجعلها تسير وفقاً لمشيئتها،وألا فإنها ستواجه مجاعة لا قبل لها على تحملها،أو أنها ستتعرض لاضطرابات داخلية،أو اختلالات أمنية بسبب الغلاء،وفي هذه الحالة تتدخل أمريكا لتضرب ضربتها وتفرض هيمنتها على الشعوب دون مقاومة،أو أنها تترك الشعوب تصطلي بنار الغلاء،وتصطدم بحكومتها،مما يضطرها اللجؤإلى أمريكا بحثاً عن مخارج للأزمات المتعاقبة،وهو ما يجعلها تصبح رهينة بيد أمريكا إلى ما شاء الله.

والعجيب أن الأفعى لا تؤذي الأشخاص الذين تمر بهم إلا إذا أحست بالخطر،فعندئذ تعض الجسم الملامس لها، بدافع النجاة من الخطر إذ إن العدوان ليس من طبيعة الأفعى في حين أن أمريكا المعاصرة صارت مغرمة بالعدوان وشغوفة بشن الغارات على قوى المقاومة،كما هو الحال في العراق وأفغانستان.

وإذا كان هناك بعض الشبه بين أمريكا المعاصرة والأفعى من حيث الأفعال الخطرة،والسلوك المؤذي للإنسان فإن الأفعى تربأ بنفسها أن تكون شريرة كأمريكا،ولا تقبل أن تكون أمريكا تشبهها بأي حال، لذلك لا غرابة إذاما كانت الأفعى تدافع عن نفسها وتفرض هذا التشبيه المجحف في حقها وغير المنصف لها فتقول:-

قالت الأفعى لأمريكا اسمعي ... إن تقليدك لي عين الغلط
أين مني أنت يامن سمّها ... بغية التمويه بالشهد اختلط؟
أين مني أنت يامن جيشها ... قذف(البوش)به في كل شط؟
أنا لا ينفث بالسُّم ٍ فمي ... لا ولا أقتل شعباً بالشطط
قد يخاف المرء مني عندما ... ألدغ الجرذ بنابي فقط
قد يقول الناس عني إنني ... أقتل الجرذ إذا نط وحط
إنما أنت تغيرين على ... أبرياء مارسوا بعض اللفظ
أين مني أنت يامن دأبها ... تسرق النفط بتدبير الخطط؟
ربما حركني الجوع إلى ... وجبة آكلها مثل القطط
ربما أصطاد جرذاً عابراً ... كان قد مر بقربي أو هبط
غير أني أتحرى دائماً ... أن يكون الصيد مما قد سقط
إنما أنت عدو غاشم ... تهتكين العرض دوماً بالشرط

إمام وخطيب جامع الهاشمي (الشيخ عثمان)

الحاسوب ترجمة غير حقيقية وغير علمية لكلمة computer

أنيس محمد صالح

بسم اللّه الرحمن الرحيم .. وبه نستعين على أمور الدنيا والدين..

معروف علميا أن الجهات الأكاديمية والبحثية ومراكز الدراسات بتخصصاتها العلمية المختلفة في المعاهد التخصصية وفي الكليات والجامعات.. معنية أساسا بالبحث عن الترجمات العلمية والحقيقية لكثير من معاجم اللغات!! وخاصة للبحوث الأكاديمية لمراكز دراسات المتخصصين.. في كل التخصصات.. وهم معنيون بشكل مباشر وأساسي في إغناء المجتمعات غير المعنية بمراكز البحث. بكثير من المفاهيم العلمية الحقيقي.. من واقع تميزهم في شتى العلوم والتخصصات والتقنيات.

وما يحز في نفسي أن كثيرا من مراكز البحوث والدراسات العربية في الشرق الأوسط (وإن لم تكن جميعها) هي لا تعدو كونها مراكز دراسات تقليدية لعلوم هي ليست لنا!! ولكُتب ومسميات علمية تأتينا معمولة مكتشفة مكتوبة جاهزة وبلغات أجنبية !! ولا نملك نحن إمكانية الإكتشاف؟ لنظريات علمية تساعد في تطور ونمو العلوم والحضارات وفي علوم اللّه جل جلاله في السموات والأرض وفي خلق الإنسان .. خدمة للإنسانية والبشرية؟؟

وقد أقتصر جهد كل المتخصصين ومراكز البحث والدراسات على دراسات وأبحاث وكُتب علمية تأتينا أساسا من الخارج!! لنعلمها لأبنائنا كما هي.. وتظل الترجمات من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية.. تحتل الأهمية القصوى لمواكبة باقي اجزاء العالم المتحضر، ولنبيّن للعالم الخارجي أن لدينا الإمكانات (على الأقل) في عكس ترجمات علمية دقيقة تبين فهمنا لنظرياتهم وكُتبهم العلمية وإكتشافاتهم.. والتي نعلمها لأبنائنا في المدارس والمعاهد والكليات والجامعات العربية (بشكل تقليدي) دونما أية تدخلات منا فيما يكتشفونه!!

ومنذ زمن إدخال الـ (computer) إلى منطقة الشرق الأوسط كتقنية مُكتشفة جديدة، ظلت مراكز البحث والدراسات في الشرق الأوسط تبحث له عن ترجمة إلى اللغة العربية.. ليتداوله الناس وليعلموه لأبنائنا في المعاهد المتخصصة والكليات العلمية. وليعكس ترجمة علمية حقيقية للمهام التي يقوم عليها الـ(computer).

ووجدت أن كلمة الحاسوب لا تحقق الوظيفة التي يقوم عليها، بل إن الترجمة الحقيقية للحاسوب باللغة الإنجليزية هي كلمة(calculator) لأنه يُعنى بلغة الأرقام والأعداد والحسابات. فهو بالضرورة يحقق الترجمة والوظيفة للحاسوب.

وتعالوا معا للبحث عن الترجمة الحقيقية والعلمية والواقعية عن طريق الوسائل المتاحة لمعرفة الوظيفة التي يقوم عليها الـ (com-puter)، والتي يحقق من خلالها ثلاث مهمات رئيسية. وهي:

1 - الكتابة: كوسيلة تقوم أساسا بالتعامل مع حُروف أبجدية بأي لغة كانت.

2 - الحساب: كوسيلة تقوم أساسا بالتعامُل مع أرقام وأعداد بلغة الحاسوب.

3 - وسيلة الربط والإتصال: بالتعامل بوسائط الإتصالات المحلية والدولية، وطريقة عملها يقوم أساسا على العاملين الأساسيين (1 - 2) وهما (الكتابة الأبجدية ولغة الأعداد والأرقام).

وبالجمع بين الوسيلتين (الكتابة والحساب) فقد تحقق لدينا الجمع للعلوم المعارفية من خلال هذه الوظيفة..

وللتعرف هنا لمن تكون هذه الوظيفة في الجمع بين الوسيلتين (الكتابة والحاسوب)!! فسنجدها بوضوح في:

قولهِ تعالى:

«اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {1} خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ {2}
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ {3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {4}
عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {5}(العلق)

وتعالوا معا لنستخلص من الآية القرآنية العظيمة أعلاه , لنصل إلى الترجمة الحقيقية للـ (com-puter).

فسنجد أن القراءة في الآيتين القرآنيتين {1} و{2} هي محصلة طبيعية للمعجزة الربانية التي يقوم عليها (القلم).. والتي تقع عليه الوظيفة الأساسية من خلال وسيلتي الكتابة والحساب (يجمع بين الخاصيتين – الكتابة والحاسوب) لتحقيق القراءة والتعلُم، والتي تتحقق من خلاله بأن يعلم اللّه الإنسان ما لم يعلم.., (وهذه الوظيفة لا تتحقق إلا بالقلم)..

وليحقق القلم الوظيفة والغاية التي سُمي من اجلهما.. فيجب ان تتوفر له الوسائل الضرورية ليقوم بوظيفته الرئيسية في ان يعلم الانسان ما لم يعلم..

فمثلا:

نطلق على القلم تسمية (قلم رُصاص)، فسنجد ان مادة الرصاص هي الوسيلة التي تحقق للقلم ومن خلاله بأن يقوم بوظيفته الرئيسية بالكتابة (عن طريق الحروف الابجدية) والحسابات (من خلال الارقام والاعداد ليقوم بعمل الحاسوب).. وليعلم الانسان ما لم يعلم..

ونطلق على القلم تسمية (قلم حبر)، فسنجد ان مادة الحبر هي الوسيلة التي تحقق للقلم من خلاله بأن يقوم بوظيفته الرئيسية (عن طريق الحروف الابجدية) والحسابات (من خلال الارقام والاعداد ليقوم بعمل الحاسوب).. وليعلم الانسان ما لم يعلم..

ومن خلال هذين المثلين اعلاه، فسنجد ان الـ (computer) لا يمكن ان يقوم بوظيفته الا من خلال وسيلة الـ (keyboard)، ومعناها (لوحة التحكم أو لوحة المفاتيح) ومعناها (لوحة تنسيق الحروف والاعداد والارقام) والتي هي في الاساس تحقق الوظيفة التي سُمي من اجلها (القلم)، وليعلم اللّه الانسان ما لم يعلم.

ومن خلال وسيلة الضغط على لوحة تنسيق الحروف الابجدية والاعداد والارقام .. نكون قد حققنا الوظيفة التي يقوم بها القلم (ومن خلال الضغط على لوحة التحكُم) يدويا... وتكون بذلك هي الوسيلة التي من خلالها تحقق للقلم الوظيفة التي يقوم بها في الكتابة والحاسوب.

وعلى ما تقدم، فسنجد ان الوسائل التي من خلالها تحقق للقلم بأن يقوم بوظيفته الرئيسية في الكتابة والحاسوب هي قد تكون: (آلية، يدوية، الكترونية او معارفية بالنظر الى وسيلة الاتصال بشبكة اتصال داخلية او دولية).

ومما تقدم فسنجد ان الترجمة الحقيقية والعلمية للـ (computer) ممكن ان تكون احدى المسميات التالية:

1 - قلم آلـــــي: (وسيلة القلم بالكتابة والحساب هنا قد تكون آلية) او..

2 - قلم يـــدوي: (وسيلة القلم بالكتابة والحساب هنا قد تكون يدوية) او..

3 - قلم الكتروني: (وسيلة القلم بالكتابة والحساب هنا قد تكون الكترونية) او..

4 - قلم معـارفي: (وسيلة القلم بالكتابة والحساب هنا قد تكون معارفية).

ووفقنا ووفقكم اللّه جل جلاله إلى ما يحبه ويرضى.

كاتب إسلامي

فلسفة الذات ومعادلة التغيير الحضاري

إبراهيم نويري - الجزائر

كلمة الحضارة كلمة مختصرة لمنظومة دقيقة تنتظم عالم الأفكار وعالم الأشخاص وعالم الأشياء...بمعنى أنه إذا كانت هناك علاقة صحيحة بين هذه العوالم الثلاثة انبثقت حضارة صحيحة كذلك، وكلما اختلت العلاقة بين جوانب هذه المعادلة لدى أية أمة من الأمم اضطرب وضعها العام وساد القصور وضَعْفُ الأداء في مختلف مناحي حياتها.

ومع شدة حساسية وأهمية جميع أجزاء هذه المعادلة، التي لها صرامة ودقة المعادلات الرياضية، غير أننا مع ذلك نميل إلى الاعتقاد بأن عالم الأفكار هو سر فهم بقية جوانب المعادلة، فالأداة التي بها نقدّر مثلا قيمة شيء من الأشياء، أو أهمية شخص من الأشخاص إنما هي الفكر نفسه، إذن بإمكاننا الذهاب إلى أن عالم الأفكار مظهر بارز من مظاهر الوجود البشري وصيرورة الحضارة الإنسانية، وهو كذلك جوهر أصيل وعميق من كينونة الإنسان، أي أنه وفق الصياغة الشرعية: مناط التكاليف ومعيار تقدير المآلات، ووسيلة توجيه وتهذيب التقاليد والعلاقات العامة سواء تلك التي تحدد ضوابط وحدود الارتباط بين الخالق والمخلوق، أو بين المخلوقين بعضهم ببعض، وما يحيط بهم من ظروف ومتغيرات(1).

وأحسب أن إحداث النهضة والإقلاع الحضاري – بتعبير مالك بن نبي – رهن شروط وآليات وتوافقات كثيرة، قوامها أو أساسها أسلوب أو منهج التفكير نفسه، ومدى ما يكتنفه من فعّاليّة وشحذ للهمم والطاقات والقدرات المذخورة في عالمي الأشخاص والأشياء.

شروط الإقلاع الحضاري:

إذن نفهم مما تقدم أن التغيير داخل حركية أي مجتمع، أو في واقع أية أمة من الأمم لا يأتي جزافاً، أو كما اتفق، فهو ليس ضرباً من ضروب التخبط العشوائي، أو العمل الفوضوي الموسوم بالعجلة وقلة البصيرة، بل هو في حقيقته نسق يقوم على معادلة دقيقة جدا لخّصها القرآن الكريم في قوله تعالى: " إِنَّ اللّه لاَ يُغيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم "[الرعد:11] ...ونحاول هنا تقديمَ هذا التصور عن أهم تلك الشروط والآليات التي نرى أن الآية الكريمة سالفة الذكر تتضمنها، أو تنبهنا إليها على أقل تقدير، وهي :

1 - تحقيق الذات:

أي جعل الهُوِيَّة الحضارية للأمة منطلقا رئيسا – من الناحية المعيارية والتقديرية على الأقل – لأي نشاط أو تحرك أو إنتاج، أو لأي مشروع داخل الحراك الاجتماعي للأمة، وقد سُمي هذا المنطلق بأسماء وأوصاف تعبيرية كثيرة، وإن كان المضمون واحدا هو هو لا يتغير، فهو مثلا المذهبية أو الشَرْعة عند كلٍ من الدكتور محمود أبو السعود والدكتور عماد الدين خليل والدكتورً محسن عبد الحميد، وهو فكرية الأمة عند الدكتور محمد عمارة، وهو الذات الحضارية عند مالك بن نبي وعلي شريعتي ومحمد إقبال، وهو أيضا الإيديولوجيا أو الفكرانية عند مفكرين إسلاميين آخرين.

إنه مهما تباينت صور الألفاظ، واختلفت رسوم التعابير عن هذا المعنى، فهو من باب التجوُّز في التعبير- كما يقول علماء اللغة- فالمهم، بل الأهم هو أن تتحقق فعلا هذه الذات الحضارية في الممارسة الواقعية لشؤون الأمة كافة، وأن يكون واقعها الحي المعيش انعكاسا وتعبيرا صحيحا عن جوهر ذاتها المستقلة المتفردة، وأن تصبح هذه الذات خلفية معيارية موجّهة للسلوك الاجتماعي والاقتصادي ، وللمنجزات والأعمال والعلاقات بين أفراد الأمة نفسها، أو بين الأمة وبقية الأمم الأخرى التي ترتبط معها في علاقات مصالح ومنافع أرضية مادية.

وفي نظري أو تقديري أن هذا الشرط تحديدا له فرادة خاصة بين بقية شروط الاستنهاض أو الإقلاع الحضاري، فهو إلى جانب كونه يحقق معنى وقسمات التميّز والاستقلالية لشخصية الأمة ونسقها الفكري والاجتماعي والتربوي...فإنه كذلك عنصر تعضيد وتقوية يدعم اتجاه الثقة بالنفس لدى كافة دوائر الأمة ومؤسساتها الفاعلة.

وقد أدركت دوائر الاستعمار والإلحاق الحضاري في المؤسسة الغربية خطورة فلسفة العودة إلى الذات، فراحت تعمل وتخطط بعلم ومنهجية وفعالية في اتجاه الحيلولة دون انتشارها والوعي بأبعادها ومقاصدها...يقول المفكر الدكتور علي شريعتي: " اليوم وقد أخرج الغرب كل البشر من قواعدهم الذاتية والثقافية، ومن قدرتهم على التوالد الذاتي والانفعال الداخلي وجَعَلَهم في صورة عبيد محتاجين أذلاء ضعفاء ملتصقين ومقلدين..ما الذي ينبغي عمله؟ الشعار الذي طرحه المفكرون في الخمسة والعشرين عاما الأخيرة كآخر تجربة ثقافية مضادة للاستعمار هو: العودة إلى الذات " (2).

2 - العناية بالمنهج الفكري:

يعتقد اليوم معظم المفكّرين المسلمين والباحثين في اجتماع المجتمعات الإسلامية، ونفسية المسلم المعاصر ، بأن جوهر الأزمة في الواقع الإسلامي هي المسألة الفكرية والثقافية..أي أن هناك مشكلة في المنهج..إذ إن عملية التوجيه الفكري من أعوص المشكلات التي تعترض النهضة والتنمية والتغيير داخل تطور أي حراك اجتماعي، أو في بوتقة أي صيرورة حضارية، وذلك لارتباط هذا الجانب بعالم القيم، أو المناحي المعنوية ذات الدلالات والأبعاد المتشابهة والمعقّدة...ومن ثمّة فهي عملية تقتضي بحق مهندساً بصيراً بالبناء الفكري وإعادة صياغة وترتيب الأفكار، ولعلنا نذهب هنا إلى أن هذه هي أهم دوائر ومساحات الاجتهاد التي ينبغي تنصبّ عليها جهود حركات التجديد الفكري والإصلاح الاجتماعي والاستنهاض الحضاري.

وعملية توجيه الأفكار تستهدف أساساً تنظيم الحركة الاجتماعية وحسن توزيع الأدوار واستثمار الطاقات والأنشطة المختلفة لصالح البناء المنهجي الحضاري للأمة، وحل المعضلات المختلفة القائمة في واقع الأمة، ومجابهة التحديات التي تستهدف تعويق الأمة عن الانطلاق والتقدم، إذ ليس يكفي أبدا في هذا الصدد أن ننتج أفكارا، بل يجب – وهذا هو الأهم – أن نوجهها طبقا لمهمتها الاجتماعية المحددة، أو التي نريد تحقيقها – كما يعبر المفكر الجزائري العالمي المتميز مالك بن نبي.

إذن من الضروري والمنطقي – وهذا من مقتضيات المنهج – " الربط بين (الاجتهاد) ومعدل (حركة الفكر الإسلامي) المعاصر القادر على إيجاد حلول للمشكلات والقضايا المعاصرة التي تواجه المجتمعات المسلمة، والقادر على إبداع البدائل لما يسود تلك المجتمعات من أنظمة وافدة اجتثت من فوق أرضها لتزرع في أرض الأمة الإسلامية عنوة وقسراً .. فبقدر الجهد المبذول في البحث عن حلول معاصرة للقضايا التي تجثم على صدر الأمة الإسلامية بقدر ما يزداد معدل الحركة الفكرية في المجتمعات المسلمة " (3)..إن المنهج الفكري الصحيح، المتماهي مع ذات الأمة و مكوناتها الروحية والحضارية، هو الأداة المنطقية المناسبة حقا لإعادة الصياغة والبناء، وتجاوز السلبيات والمعوّقات، أو هو بعبارة أوضح المدخل الوحيد المحقق للتغيير المنشود ، والحراك المرتجى.

3 - شحذ الفعّالية الفردية والجماعية :

ونقصد بالفعالية هنا التجاوب النفسي والكياني برمته ، الذي يفجّر الإرادة ويضبط التوازن الاجتماعي الفردي..فالفعالية حالة نفسية ترفع الهمّة وتضاعف العطاء والنفع سواء على مستوى الفرد نفسه أو على مستوى الجماعة أو الأمة، أو هي باختصار قدرة الإنسان على تحويل الطاقة المودعة فيه إلى عمل نافع بأمثل الطرق وأفضل الأساليب المتاحة له في عصره (4) وهناك أمثلة كثيرة عن حقيقة الفعالية في سيرة رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – والسلف الصالح، فالخليفة العظيم عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه، وُصفت حياته بعد إسلامه بأنها حياة فاعلة – لها مردود ملموس ومؤثر – بالرغم مما أثر عنه من قلة الحفظ واستيعاب النصوص، وعمار بن ياسر رضي اللّه عنه، الذي كان يقوم بتقديم مجهود عاملين اثنين أثناء بناء أول مسجد في الإسلام وهو مسجد قباء، حتى قال له رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم – بعد أن لاحظ فعالية عمار: " للناس أجر ولك أجران "..إن هذه الفعالية هي التي تنقصنا اليوم، وهذا أحد أسباب ضعف الأداء أو قلة الإتقان للأعمال والواجبات التي تُسند إلينا أو نُكلف بها، فينبغي إذن أن نقتنع بأننا فعلا " نحتاج في ساعات الإقلاع الحضاري إلى روحية اجتماعية عالية ومتوقدة وعاملة...ذلك أن فترة " الإقلاع الحضاري " تحتاج إلى فعالية روحية ضخمة أكبر من أي فترة أخرى من فترات النمو الحضاري "(5).

4 - الموازنة بين الإمكان والطموح:

لابد أن الرشد العقلي أو الفكر الحصيف، يقضي بضرورة العمل بمبدأ الموازنة الدقيقة بين الإمكان والطموح، أي استغلال الإمكانات والقدرات المتوفرة بالفعل، وإقامة الخطط والمشروعات والمناهج وفق تلك الإمكانات والقدرات، مع ضبط الطموحات والآمال والتطلعات، فإن حسن استغلال ما هو موجود وقائم بالفعل، أولى من التعلق بطموحات وآمال قد تكون معطياتها ومقتضياتها بعيدة المنال.

انظر مثلا إلى بعض الدول التي تتوافر لديها الإمكانات الزراعية الهائلة، من أراض خصبة ومياه جوفية ومناخ معتدل ويد عاملة مدربة، لكنها مع ذلك كله تتجه إلى الصناعة الثقيلة، التي لا تملك متطلباتها، وكان ينبغي أن تستغل أولا الإمكان القائم في الواقع... وما ينتج عن ذلك الإمكان القائم بالفعل من خبرة وقوة مادية هو الذي يقودها بعد ذلك إلى تحقيق طموحاتها في المجالات الأخرى.

في هذا النطاق كثيرا ما يقع الدارسون والمخططون للتنمية والتغيير والبناء الحضاري في أخطاء منهجية قاتلة، خاصة عندما يلجأون إلى أسلوب المقارنة بين إنجازات شعب ما بإنجازات شعب آخر، ومع أنه يصح الاستئناس بهذا الأسلوب لأغراض علمية أثناء التحليل المقارن المتعلق بدراسة مشكلة التخلف، كأن نقول مثلا إن الشعب الجزائري يساوي ديمغرافيا عدد الشعب الكندي، أو أن الشعب التونسي يماثل عدد الشعب السويدي...أو كأن نقول بأن مساحة الجزائر تعادل مساحة فرنسا خمس مرات كاملة! وأن مساحة تونس تعادل مساحة هولندا ثلاث مرات! بيد أن هذا الأسلوب الدراسي أو العلمي الذي نذكره أحيانا في بعض دروس الجغرافيا، هو يقينا غير أسلوب المقارنة بين منجزات شعبين من الشعوب، أو أمتين من الأمم.

فنحن إذا انتقلنا إلى مجال التقدم العلمي، أو مستوى الحياة والحضارة، وجدنا البون شاسعا بين الجزائر وتونس من جهة، وبينهما وبين كندا والسويد وفرنسا وهولندا من جهة أخرى، إذن نستطيع الذهاب إلى أن منجزات شعب من الشعوب أو أمة من الأمم، إنما تقاس " بإمكانات وطموحات " ذاك الشعب نفسه، أو تلك الأمة نفسها، وليس صحيحا أن تقاس تلك المنجزات بمنجزات شعب آخر، ذلك أن الإمكانات والطموحات لا تكون حينئذ متكافئة. فينبغي إذن مراعاة هذا المبدأ كي نتجنب الإحباط وضعف العزائم، في سيرنا الحضاري المعاصر، ونحن نحاول تخطي سدود التخلف والتبعية التي بعثرها في طريقنا الاستعمار الغربي الحديث.

5 - الاستقرار الاجتماعي:

يُعتبر الاستقرار الاجتماعي، واستتباب الطمأنينة والأمن الداخلي، أبرز وأهم الأسباب التي تمد المشاريع الفكرية والبرامج التنموية بالدفع والقوة، بل إن عجلة التنمية لا يسعها أن تتقدم في غير جو الاستقرار والهدوء والتماسك الاجتماعي، وقد أدرك الإسلام هذا العامل وأثره البالغ في حركة التطور والنهوض والبناء الحضاري، فأولاه عناية خاصة، وشدّد على تثبيت أسبابه وركائزه داخل البنية الاجتماعية العامة.

والدارس لأدبيات الإسلام الأساسة يلحظ في غير جهد أو مشقة، مدى اهتمام هذا الدين الحنيف بآليات التماسك الاجتماعي وأسباب تآزر وتكافل أفراد المجتمع المسلم، وأيضا مدى مناهضته لكلّ ما من شأنه أن يخلق الفتنة بين صفوف المجتمع، أو ما يولّد(الاستفزاز الاجتماعي)- بتعبير المفكر السعودي الدكتور محمود سفر- ذلك أن التفاوت في الأرزاق والمواهب سنة إلهية في الاجتماع البشري لكننا إذا لم نحسن التعامل مع هذه السنة، فقد ينجر عن ذلك ما لا يُحمد عقباه...فإن اللّه تعالى" خلق الخلق وفاوت في أرزاقهم فبرز تبعا لذلك "التفاوت الاجتماعي" في المجتمع المسلم كوسيلة من وسائل العيش وتسيير دولاب الحياة بتسخير بعض البشر لبعض في ظلّ ألفة ومحبّة وإخاء إنساني...لكن من الشروط الموضوعية لتحقيق الألفة والمحبة والإخاء الإنساني في المجتمع المسلم أن لا يبرز فيه "الاستفزاز الاجتماعي" وأسبابه التي نهى عنها الدين ورفضتها القيم والتقاليد الصالحة"(6).

فلننظر إلى أي مدى تتجنّب المجتمعات الإسلامية أسباب الاستفزاز الاجتماعي..وإلى أي مدى تعمل من أجل التماسك الداخلي؟!

6 - استيعاب حضارة العصر:

في العطاء الحضاري هناك ما هو خصوصيات أو بصمات ذاتية خاصة بأمة من الأمم، وهناك أيضا ما هو مشترك إنساني عام، لذلك نشدد على أن المقصود باستيعاب حضارة العصر، إنما هو الجوانب الإنسانية العامة المشتركة؛ خاصة منها ذات المنحى العلمي والتقني المحض أو الخالص، وينبغي كذلك أن ننبه إلى أن قضية استيعاب العصر وحضارته ليست مسألة بسيطة، بل هي تتطلب بدءاً كل الشروط المذكورة آنفا...إنها باختصار شديد ليست" مقالا يُكتب أو كتابا ينشر أو حديثا يذاع، أو خطبة تلقى، أو بضاعة تباع...لكنها معاناة وجهاد تُسهم فيه الأمة، بكل مؤسساتها و معاهدها ومعاملها ورجالها، وتعقد عليها العزم للبناء والمثابرة، وتُسقط في سبيلها من حياتها مظاهر الترف والدّعة والركون إلى الاستسلام والتواكل، حتى تستطيع أن تتهيأ لعملية الاستيعاب، وتُقيم البناء الحضاري على عُمد ثابتة راسخة ومتينة"(7).

مما تقدم نفهم بأن هناك شروطا صارمة ودقيقة، لابد من الوفاء بها، حتى نتمكّن من بلوغ النجاحات لمشروع أمتنا الحضاري، وبالتالي تحقيق انعتاق و استقلال ذاتها الحضارية بشتّى مكوّناتها وأبعادها، وخروجها النهائي من دائرة التبعية والإلحاق للآخر الحضاري في شتى المجالات ، وعلى كافة المستويات . وباللّه التوفيق .

هوامش:

1 - مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، فصل: المجتمع والأفكار.

2 - علي شريعتي، العودة إلى الذات، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة 1986م، ط1، ص 43-42.

3 - محمود سفر، ثقب في جدار التخلف، دار الصافي للثقافة والنشر، الرياض، 1989م، ط1، ص110.

4 - سيد دسوقي حسن ومحمود سفر، ثغرة في الطريق المسدود، دار آفاق الغد، القاهرة، 1981م، ط1، ص95.

5 - المرجع نفسه، ص99.

6 - محمود سفر، ثقب في جدار التخلف، مرجع سابق، ص57.

7 - محمود سفر، دراسة في البناء الحضاري، كتاب الأمة(21)، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، رجب 1409 هـ، ص112.